بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

[مقدمة التحقيق]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكله، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد:

فقد مرت بالفقه الإسلامي أطوارٌ متعددةٌ يتداخل بعضها في بعضٍ ، ويؤثر المتقدم فيها بالمتأخر ، ولا نستطيع أن نقول : إن هذه الأطوار متميزةٌ من حيث الزمن تمييزًا دقيقًا ، اللهم إلا الطور الأول وهو عصر النبوة ، فإنه متميزٌ عما بعده بكل دقةٍ ، بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

وطور عصر النبوة في عهديه المكي والمدني يعتمد كل الاعتماد على الوحي ، حتى إن المسائل التي اجتهد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اجتهد فيها أصحابه في حضرته أو غيبته ثم علمها فأقرها أو أنكرها تعتمد - كذلك - على الوحي ؛ لأن الله سبحانه وتعالى إن أقر هذا الاجتهاد فهو تشريعٌ بطريق الوحي ، وإن رده فالمعتمد على ما أقره الوحي من تشريعٍ.

وقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بعد أن مكث يبلغ رسالة ربه ثلاثًا وعشرين سنةً ، منها ثلاث عشرة سنةً بمكة ، كانت مهمته الأولى تثبيت العقيدة ، ما يتصل منها بالله سبحانه وتعالى أو التدليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أو ما يتصل منها باليوم الآخر ، كما عني في هذا العهد بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن أمهات الرذائل ثم جاء عهد الصحابة الذي يتميز بكثرة الأحداث التي جدت بعد عهد النبوة ، لكثرة الفتوحات واختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم التي لها أعرافٌ لم تكن معروفةً عند العرب . ولا بد من معرفة حكم الله في هذه الحوادث الجديدة ؛ لأنه - كما كررنا مرارًا - ليس هناك حادثةٌ إلا ولها حكمٌ شرعي .

وكان هذا العهد يتميز بوجود صحابةٍ عرفوا بالفقه ، فكان يرجع إليهم إذا نزلت الحوادث . وكان منهم المكثرون للفتيا وهم لا يتجاوزون ثلاثة عشر شخصًا . نذكر منهم : عمر وعليا وزيد بن ثابتٍ وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباسٍ ومعاذ بن جبلٍ وعبد الله بن مسعودٍ إلخ . رضي الله عنهم جميعًا .

وهناك من أثر عنه الفتوى في مسألةٍ أو مسألتين أو ثلاثٍ . وكان منهم من يعتمد في اجتهاده على روح التشريع متى ساعدته النصوص . ويعتبر إمام هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تلميذه عبد الله بن مسعودٍ . ومنهم من كان يلتزم الحرفية ، كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وفي صدر هذا العهد ، وبالتحديد في عهد الشيخين أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما جد مصدرٌ ثالثٌ سوى الكتاب والسنة كان مرجعًا لمن جاء بعدهما ، ألا وهو الإجماع ، فقد كان إذا نزلت الحادثة يستدعي الخليفة من عرفوا بالتفقه في الدين ، وكانوا معروفين مشهورين محصورين فيما بينهم ، فيعرض عليهم الأمر ، فإن اتفقوا على رأيٍ كان ذلك إجماعًا لا يسوغ لمن جاء بعدهم أن يخالفوه .

ثم كان عهد التابعين ويعد امتدادًا لعهد صغار الصحابة، فكان تلامذة عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه مثلا ، وأشهرهم علقمة النخعي ، ثم من بعده إبراهيم النخعي ، وعليه تخرج أئمة هذا المذهب.

وقد تميزت المدرسة الأولى في عهدي الصحابة والتابعين بما يأتي:

١- الوقوف عند النص وقد ساعدهم على ذلك كثرة النصوص عندهم وقلة ما يعرض عليهم من مشاكل.

٢- التورع عن الرأي وكراهية الفقه الافتراضي، ولهذا لم يلجئوا إلى الرأي إلا في أضيق الحدود.

وتميزت المدرسة الثانية في عهدي الصحابة والتابعين بما يأتي:

١- البحث عن العلل التي شرعت الأحكام من أجلها للقياس عليها.

٢- الإكثار من الفقه الافتراضي وحب الفتوى والترحيب بها وتهيب الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم خوفًا من الكذب.

obeikandl.com

تطور المدارس الفقهية

بعد أن تجاوزت المدارس الفقهية مرحلة النشوء والتكوين من بداية الدعوة إلى آخر عهد التابعين، وبعد هذه الفترة أو الفترات دخلت المدارس الفقهية مرحلة جديدة لا تختلف اختلافًا كليًا عما سبقتها ولكنها بلورة لها وبناء عليها وإبراز لسماتها وخصائصها، وإذا كانت المرحلة السابقة غطت القرن الأول الهجري فإن المرحلة الحالية غطت القرن الثاني الهجري.

وقد ظهرت في هذه المرحلة مدرستان مشهورتان:

١- مدرسة الحديث

وكان اعتمادها في الاجتهاد على نصوصٍ من كتابٍ وسنةٍ ، ولا تلجأ إلى الأخذ بالرأي إلا نادرًا ، وذلك لوفرة المحدثين هناك ، إذ هو موطن الرسالة ، وفيه نشأ المهاجرون والأنصار ، وسلسلة الرواة عندهم قصيرةٌ ، إذ لا يتجاوز التابعي في تحديثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من راوٍ واحدٍ ، وهو الصحابي غالبًا . والصحابة رضي الله عنهم عدولٌ ثقاتٌ .

وكانت هذه المدرسة بالمدينة يتزعمها أولاً : عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ومن بعده سعيد بن المسيب وغيره من التابعين ، وأخرى بمكة ، وكان يتزعمها عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما ترجمان القرآن . وحمل الأمانة بعده تلاميذه كعكرمة مولاه وابن جريجٍ .

ومن أشهر فقهاء هذه المدرسة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

٢- مدرسة الرأي

وكانت تلجأ إلى الرأي كثيرًا . والرأي عندهم يرجع إما إلى القياس الأصولي ، وهو إلحاق مسألةٍ لا نص فيها بمسألةٍ فيها نص شرعي ، لعلةٍ جامعةٍ بينهما ، وإما رد المسائل المستحدثة إلى قواعد الشريعة العامة ؛ لأن أساتذة هذه المدرسة شددوا في الرواية ، نظرًا لأن العراق كان يومئذٍ موطن الفتن ، ففيه الشعوبيون الذين يكنون العداء للإسلام ، ولكنهم يعبرون عن ذلك بكراهيتهم للعرب ، ومنهم الملاحدة الذين لا يفتئون يثيرون الشبهات ، ومنهم غلاة الرافضة الذين بالغوا في حب علي حتى جعلوه إلهًا أو شبه إلهٍ ، ومنهم الخوارج الذين يكرهون عليا وشيعته ، بل ويستبيحون دماء المسلمين الذين على غير نحلتهم ، ومنهم

ومنهم . . . فكان الفقهاء الذين يعتد بهم يتحرون في الرواية ، ويدققون فيها ، ويضعون شروطًا لم يلتزمها أهل الحجاز .

وذلك أنهم اعتبروا عمل الصحابي أو التابعي بغير ما روى قدحًا في روايته . فيحملون هذه الرواية على أنها منسوخةٌ أو مؤولةٌ . وكذلك يعتبرون أن انفراد الثقة بروايةٍ في مسألةٍ تعم بها البلوى قدحٌ في روايته ، ويحملون هذه الرواية على أنها إما منسوخةٌ أو خطأٌ من الراوي عن غير قصدٍ ؛ لأنهم كانوا يتحاشون وصف الثقات بتعمد الكذب ، فالعدل قد ينسى أو يخطئ .

ومن هنا كثر اعتماد فقهاء هذه المدرسة على الأخذ بالرأي فيما يجد لهم من أحداثٍ ، اللهم إلا إذا ثبتت عندهم سنةٌ لا شك فيها ، أو كان احتمال الخطأ فيها احتمالاً ضعيفًا .

وكان زعيم هذه المدرسة عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه . ثم جاء من بعده تلاميذه ، وأشهرهم علقمة النخعي ، ثم من بعده إبراهيم النخعي ، وعليه تخرج أئمة هذا المذهب .

ملاحظات على خصائص ومناهج المدرستين:

١- مدرسة الحديث عنايتها بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار، وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجد خبرًا أو أثرًا، بينما كانت عناية مدرسة الرأي بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار.

ليس معنى أن مدرسة الحجاز كانت مدرسة الحديث والأثر أنه لم يكن من بين فقهائها من يعتمد على الرأي في كثيرٍ من استنباطاته ، فقد عرف في هذا العهد من الحجازيين ربيعة بن عبد الرحمن ، المشهور بربيعة الرأي ، وهو شيخ الإمام مالكٍ . كما كان في العراق من يكره الأخذ بالرأي كعامر بن شراحيل المشهور بالشعبي .

٢- كان المسلمون قبل هذا العهد لا ينحازون إلى مذاهب، بل المسلم أحد رجلين: إما عالم مجتهد وإما عامي أو شبهه، ولكن الناس في هذه المرحلة وجدوا أنفسهم أمام اتجاهات واضحة ومناهج محددة فانحاز بعضهم إلى مدرسة الحديث والبعض الآخر إلى مدرسة الرأي.

٣- مدرسة الرأي أكثر حركة وقدرة في استنباط الأحكام والاستدلال عليها والتخريج فيها، بينما كانت مدرسة الحديث مقيدة بقيود عدة ولا تتحرك إلا في إطار هذه القيود والضوابط، وكان لهذه الخاصية أثرها في نمو الفقه الحنفي أو العراقي أكثر من فقه الحديث أو الفقه الحجازي، فكثر في الأول التأليف والتدوين والتفريع، على حين كان ذلك في الثاني محدودًا.

٤- وقف فقه الحجاز عند حدود الواقع ولم يتجاوزه إلى الافتراض، بينما تجاوز الفقه العراقي حدود الواقع إلى الفقه الافتراضي، وكانت هذه الخاصية من عوامل نمو الفقه العراقي أكثر.

٥- الغلبة في هذه الفترة والمكانة الأكبر لمدرسة الحديث، كما كان تأثيرها في مدرسة الرأي أقوى من تأثير مدرسة الرأي فيها أو في غيرها، وذلك لأن قوة المحدثين كانت أكبر وجمهور المسلمين كان أشد نصرة لهم.

obeikandl.com